

التناص القرآني في أرجوزة ابن المعتز في الخليفة المعتضد

رائدة أخوزهية*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الحديث عن آليات التناص القرآني التي استعان بها ابن المعتز في أرجوزته التي أرخ فيها لإنجازات الخليفة العباسي المعتضد. وتحاول في البداية أن تعرف بمفهوم التناص بشكل مختصر. ثم تقف الدراسة عند الأرجوزة وتحاول أن تقدم تعريفاً موجزاً بها وبسبب نظم الشاعر لها. ثم تتبّع الدراسة التناص ودلالاته في الأرجوزة، وتركز على توظيف الشاعر للنص القرآني من خلال تتبع الآيات والقصص القرآنية التي استوحاها الشاعر في الأرجوزة، وخلصت الدراسة إلى أن ابن المعتز استطاع أن يعيد صياغة ما استوحاه من النص القرآني، وأن يدخله في نسيج نصه بحيث بدا وكأنه هو الذي يتحدث وليس النص القرآني.

تمهيد

حظي مفهوم التناص باهتمام كبير في الأدب العربي، وقد حاول كثير من النقاد العرب دراسته وتتبع أصوله وطرق توظيفه في الأدب العربي، فظهرت دراسات متميزة ليس هنا مجال التفصيل فيها، كما أن الدراسة لا تعنى بالجانب النظري لمفهوم التناص، وتكتفي بالحديث الموجز عن ماهية التناص القائمة على تداخل النصوص، وغرض الشاعر من توظيف التناص في أعماله، تمهيداً للجانب التطبيقي الذي غلب على الدراسة.

تنبه النقاد العرب القدامى إلى ظاهرة تداخل النصوص، التي تعد "سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل"⁽¹⁾، حين استخدموا مصطلحات مثل: التضمين، والسرقات الشعرية، والاقتباس، والاحتذاء... إلخ التي تقترب من ماهية التناص وإن اختلفت عنه بالمسمى؛ فالعمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري، فهو لا يأت من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، وهو نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي، وبذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه⁽²⁾، والنص ابن النص⁽³⁾، وكل نص ما هو إلا إناء يحوي بشكل أو بآخر أصداء نصوص أخرى، ولاشك أن الشاعر يتأثر بترائه وثقافته ويبنى عليها شعره، فالتناص أمر لا مفر منه وهو

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2011.

* قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن.

موجود في كل نص شعري إذ إنه "لافكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتها"⁽⁴⁾. وفي ضوء ما سبق يمكننا أن نفسر سبب تضمين الشاعر للنصوص التراثية في نصه الجديد الذي أراد له أن يحمل المضامين الفكرية والفنية التي يود التعبير عنها. وتعد أرجوزة ابن المعتز في مدح الخليفة العباسي المعتضد، أحد النصوص الشعرية التي ظهر فيها جلياً توظيف الشاعر للنص القرآني، موضوع هذه الدراسة.

حول الأرجوزة

تعد أرجوزة ابن المعتز "صورة مصغرة لنمط الملاحم كالإلياذة والشاهنامة سدت بعض النقص في الشعر العربي من هذا النوع"⁽⁵⁾، وهي نص جدير بالتأمل والدراسة لما تحويه من غنى وتنوع في الظواهر الأدبية والفنية. تتكون الأرجوزة من (420) بيتاً، نظمها الشاعر بطلب من الخليفة العباسي المعتضد (289هـ) الذي أراده أن يؤلف كتاباً يترجم فيه لسيرته، ولما اطلع الخليفة على الأرجوزة اكتفى بها عن الكتاب⁽⁶⁾. وفيها يسجل ابن المعتز بعض إنجازات المعتضد في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويقارن بين أوضاع الخلافة العباسية قبل مجيء المعتضد وبعد توليه الخلافة؛ إذ تبدلت الأوضاع إلى الأحسن بما عرف عن الخليفة الجديد من قوة وعدل وإصلاح قضى به على المتمردين⁽⁷⁾، وخلص الدولة مما اعتراها من ضعف وخور. وتكشف هذه الأرجوزة بجلاء عما كان يعتمل في نفس ابن المعتز من أحاسيس ومشاعر نحو الخلافة العباسية التي كان يحلم بعودتها قوية كما كانت في العهد الأول؛ ولذا "كان يدعو الخلفاء من أهل بيته إلى اليقظة، والحزم والقوة، وإلى العمل المجدي لإعادة مجد الخلافة، وناضل في أرجوزته نضال الأبطال بلسانه ورائع بيانه عنها، ووقف بالمرصاد لكل الخارجين على الدولة والطامعين فيها"⁽⁸⁾.

التناص القرآني ودلالاته في أرجوزة ابن المعتز

بعد أن تأسست دولة بني العباس، وقبض العباسيون على السلطة، أعلنوا في غير مناسبة عن عزمهم على اتباع كتاب الله وسنة نبيه، ونددوا بالأمويين أهل الجور. وبدأوا بشرح معنى العمل بالكتاب والسنة، ورسوموا أبعاده، ووضحوا أهدافه، وسمّوا أصحابه، وذكروا أن غايتهم من الالتزام بالكتاب والسنة تتمثل في تطبيق الإسلام، ورفع الظلم، ونشر العدل. وكانوا يرون أنفسهم أقدر الناس على القيام بذلك؛ لأنهم أبصر من غيرهم بروح الإسلام وقواعده، وأعرف بمراميها ومقاصده⁽⁹⁾ حتى قال فيهم ابن الطقطقي: "اعلم أن هذه دولة من كبار الدول، ساست العالم ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحاهم يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة"⁽¹⁰⁾. ولما بوبع المعتضد بالخلافة سار على نهج الخلفاء السابقين في تطبيق أحكام

الإسلام وإقامة العدل، وإقرار الأمن، وإشاعة السلام. ولعل هذا ما حدا ابن المعتز على توظيف النص القرآني في مدحه للخليفة.

أ- تناص الآية القرآنية:

يستوحي الشاعر النص القرآني في النص الفني، ويحدث تفاعلاً بين النصين من خلال المماثلة والمخالفة لبلورة الفكرة التي يسعى للتعبير عنها في نصه، ففي الأرجوزة يمهّد الشاعر للحديث عن إنجازات المعتضد التي أعادت للخلافة هيبتها بذكر الله، وتمجيده بذكر بعض صفاته وأسمائه الحسنى، فقال:

بِاسْمِ الإِلهِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ ذِي الْعِزِّ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّلْطَانِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى آلَانِهِ أَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ مِنْ نَعَمَائِهِ⁽¹¹⁾

يمثل النص السابق استدعاء لعدد من الآيات القرآنية التي تحت على حمد الله كما في سورة الفاتحة "الْحَمْدُ لِلَّهِ"⁽¹²⁾، وقوله تعالى: "وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"⁽¹³⁾. ويلحظ أن الشاعر اختار في بيتيه السابقين من أسماء الله الحسنى وصفاته ما يدل على القوة (الملك، ذو العز، والقدرة، والسلطان) لتنسجم دلالة هذه الأسماء والصفات مع ما تم تحقيقه من إنجازات لم تكن لتتحقق إلا بالقوة، والحزم والعزم، والشجاعة التي هي متطلب أساسي- كذلك- للقضاء على ثورات المتمردين الذين كان لا بد من إشعارهم بقوة السلطة المركزية لئلا يتمردوا ثانية.

وفي توظيف صفة الرحمن في البيت الأول السابق إظهار لرحمة الله بالمعتضد، الذي من الله عليه بتحقيق هذه الإنجازات الكبيرة على يديه، ومكنه من إعادة الهيبة للخلافة؛ ولا شك أن هذا من موجبات الحمد والشكر لله. ويلحظ أن الشاعر استخدم في البيت الثاني صيغة المصدر مرتين عند حمده الله؛ وذلك للدلالة على استحقاقه سبحانه الحمد، فهو محمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين⁽¹⁴⁾. وخص نفسه بالحمد بقوله (أحمده) للتنبيه على ميزة الحمد، وأهمية صدور هذا الفعل عن الإنسان نفسه؛ فحمد غيره لا يغني عن حمده، والتعبير عن هذا الحمد بالفعل المضارع يدل على استمرارية صدور فعل الحمد عن الشاعر الذي يدرك تماماً أن قدرته على مواصلة الحمد، تعد نعمة من نعم الله التي تستوجب الشكر.

وحتى يبين ابن المعتز قدرة الله-سبحانه تعالى- في تحقيق مراده بسرعة غير متناهية استعان بالفاء في قوله:

أَبَدَعَ خَلْقًا لَمْ يَكُنْ فَكَانَا وَأَظْهَرَ الْحُجَّةَ وَالْبَيَانَ⁽¹⁵⁾

وقد استوحى الشاعر في البيت السابق مضمون ثلاث آيات قرآنية دالة على قدرته سبحانه وتعالى، وهي قوله: "قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"⁽¹⁶⁾، وقوله تعالى: "أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا"⁽¹⁷⁾، وقوله تعالى: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"⁽¹⁸⁾. ويلحظ أن الشاعر دمج بين دلالة النصوص الثلاثة في بيته السابق؛ فالله هو الذي أوجد الخلق من العدم لما أراد ذلك، ويبدو من سياق الأرجوزة، أن الأمر الذي أراده الله هو أن تصان الخلافة ويعاد لها هيبتها على يد المعتضد. واستوحى -أيضاً- لفظة (أبدع) من الآية الأخيرة للدلالة على الخلق من العدم، ثم نكر كلمة (خلقاً) لتشمل كل ما خلقه الله دون تحديد، ولا يستطيع فعل ذلك إلا القادر على كل شيء القائل: كن فيكون.

وعد الشاعر انتصارات الخليفة، التي أفاض بالحديث عنها في ثانيا أرجوزته، مظهراً من مظاهر رضى الله على الخليفة، ونعمة من نعمه عليه وعلى المسلمين كما يتضح من قوله:

حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّهُ لَهُ بِالْفَتْحِ
مِن بَعْدِ طَوَّلِ تَعَبٍ وَكَدْحٍ
وَنَصَبَ النَّاسِ لَهُ الْقِيَابَا
وَشَكَرُوا الْمُهَيْمِنَ الْوَهَابَا⁽¹⁹⁾

يمثل البيت الأول استدعاء لغير آية قرآنية تحمل المعنى نفسه من مثل قوله تعالى: "وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"⁽²⁰⁾، وقوله تعالى: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"⁽²¹⁾. وتتفق النصوص السابقة في الدلالة على أن النصر من عند الله، يمن به على من يشاء من عباده إذا استحقه، وهذا ما حدث مع المعتضد الذي-كما صورته الشاعر-يبدل كل جهده لتحقيق النصر. ويجمع الشاعر في بيته السابق بين (التعب والكدح) ليكني عن تغلب المعتضد على العقبات التي صادفته بفضل إعداده، واستعداداته الجيد، وأخذه بالأسباب ثم توكله على الله. ولم ينس الشاعر المنعم في غمرة التمتع بالانتصارات التي حققها المعتضد؛ فصور الناس يشكرون المهيمن الوهابا الذي لولا توفيقه لهم لما حققوا مثل هذا الإنجاز. وجمع الشاعر الصفتين معاً في سياق واحد؛ ليدل على أن تحقيق النصر يقتضي اجتماعهما؛ أي الجمع بين القوة والشدة من جهة، والمن والعطاء من جهة أخرى.

وختم الشاعر تمهيده بالصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم-فقال:

وَجَعَلَ الْخَاتِمَ لِلنَّبِيِّ
أَحْمَدَ ذَا الشَّفَاعَةِ الْمَرْجُوهُ⁽²²⁾

مستوحياً في ذلك ما جاء في قوله تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"⁽²³⁾، وقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ"⁽²⁴⁾.

ب- التناص القصصي القرآني:

يوظف ابن المعتز قصص القرآن الكريم في أرجوزته، ويضفي عليها أبعاداً جديدة تنسجم والمضمون الذي أراد التعبير عنه. ومن القصص القرآنية التي وظفها ابن المعتز:

1- قصة موسى عليه السلام:

يوظف ابن المعتز قصة موسى عليه السلام- من خلال استدعاء شخصية فرعون، وما يرتبط بها من تمرد وتيه وضلال. فأثناء حديثه عن الذين عاشوا فساداً في الدولة العباسية، وحاولوا التمرد عليها، وشق عصا الطاعة، خص فرعون بالذكر فقال:

وَكَانَ قَدْ مَرَّقَ ثَوْبَ الْمَلِكِ
فَمِنْهُمْ فِرْعَوْنُ مِصْرَ الثَّانِي
طَوَائِفُ إِيْمَانِهِمْ كَالشَّرِكِ
عَاصِي الْإِلَهِ طَائِعُ الشَّيْطَانِ⁽²⁵⁾

و في بادئ الأمر بدا الشاعر متردداً أو متهيئاً من وصف المتمردين بالشرك صراحة، ولعل هذا ما جعله يستخدم (الكاف) في تشبيه إيمانهم بالشرك ليشعر القارئ بوجود فاصل بينهم وبين الشرك، ثم تخلى ابن المعتز عن تردده هذا وتجراً على وصفهم بالشرك صراحة حين عد فرعون واحداً منهم. ولما كان أحمد بن طولون -الذي ملك عرش مصر من (254-270هـ)-⁽²⁶⁾ في نظر الشاعر رمزاً لقمة التمرد والعصيان البشري؛ جاء وصفه بالعاصي ليتأكد هذا المعنى، وفي ذكره طاعة الشيطان المتضمنة أصلاً في عصيان الله تصويراً لعظم طغيان فرعون، وتمرده الذي استوحاه من خطاب الله لموسى -عليه السلام-: "أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى"⁽²⁷⁾. ومما لا شك فيه أن الشاعر استحضر في ذهنه النص القرآني عندما سَمَّى من تمرد على الدولة العباسية، فرعون مصر، وفرعون الثاني تمييزاً له عن فرعون الأول، مشيراً بذلك إلى اتباع المتمردين نهج فرعون في الضلال والطغيان والفساد؛ ففرعون الثاني لم يرث عن فرعون الأول أسوأ ما فيه من صفات فقط، وإنما تفوق عليه في الضلال كما يتضح من قوله في العلوي*:

شَيْخُ ضَلَالٍ شَرٌّ مِنْ فِرْعَوْنَ
لِحَيْتِهِ كَذَنْبُ الْبِرْدُونِ⁽²⁸⁾

وفي قوله (شيخ ضلال) مفارقة قصد ابن المعتز بها أن يعبر عما أراده من توصيف لسوء أفعاله، فكلمة شيخ تطلق على ذي المكانة من علم أو فضل أو رياسة⁽²⁹⁾، أما أن تطلق على شيخ في الضلال فهذا غير المتوقع، كما أن كلمة شيخ توحى بتفوق صاحبها وإحرازه درجة عالية، ولكنه تفوق في الضلال! وبذا جاءت هذه الكلمة متلائمة ومنسجمة مع كلمة فرعون. وعبر الشاعر بالجملة الاسمية (شيخ ضلال) لتوحى بتأصل الشر ورسوخه في العلوي، بحيث بات هو والضلال والشر متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر. وإمعاناً في التعريض به رسم له صورة ساخرة مضحكة، فشبّه لحيته بذنب البردون*.

واستوحى الشاعر قصة فرعون ثانية ليصور سوء الأفعال التي ارتكبها المتمرّدون في الدولة العباسية فقال:

وَهُمْ بَنَوْا حِصْنَ صُرَاحاً مُحْكَمًا فَاتَّخَذُوا إِلَى السَّمَاءِ سُلْمًا⁽³⁰⁾

جسد الشاعر الجور (الأمر المعنوي) في صورة الصرح (القصر العالي) المحكم البناء، ولم يكتف بما توجّيه كلمة صرح/قصر من فخامة وإتقان، فوصفه بالمحكم (المتقن) ليبالغ في تصوير سوء أفعالهم، وحرصهم على إتقانها، فهم أخلصوا في بناء باطلهم، وفي الوقت ذاته فإن كلمة الصرح تعني فيما تعنيه البناء العالي الذاهب في السماء⁽³¹⁾، وفي هذا تعبير عن شدة عتوهم وظلمهم، وإرادتهم الصعود إلى السماوات العلى بما بنوه من صرح. والشاعر في تصويره السابق يستوحى قوله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أسباب السماوات"⁽³²⁾.

يتجسد التناص بين النصين الديني والشعري من خلال المماثلة والمخالفة. فقد شاكل النص الجديد النص التراثي في التمرد والثورة، وخالفه في التنفيذ، فإذا كان فرعون-كما صورته النص القرآني-قد طلب من هامان أن يبني له صرحاً ليصعد به إلى السماء، فإن متمردي الدولة العباسية تفوقوا على فرعون في تمرده، ونفذوا ما عجز فرعون-رمز الطغيان والضلال-عن تحقيقه، فبنوا الصرح واتخذوا منه سلماً للصعود، وتحول الرجاء في قول فرعون (لعلي) إلى أمر نافذ في قول الشاعر عن المتمردين (فَاتَّخَذُوا إِلَى السَّمَاءِ سُلْمًا)، وفي استخدام الفاء ما يدل على السرعة في الإنجاز، وبالتالي السرعة في الصعود. ويعود الشاعر مجدداً إلى المفارقة في الشطر الأول من البيت، فيربط بين الحرص على إتقان العمل والظلم؛ فالإنسان يحرص على إتقان العمل إذا كان فيه (العمل) الخير والصلاح، أما أن يحرص على إتقان الباطل فهذا مما تستهجنه الطبيعة البشرية ويخرج عن المنطق.

وصور الشاعر المعتضد يحقق الإنجاز تلو الإنجاز، فهو بعد أن قضى على المتمردين على الدولة، التفت إلى الواقع الاجتماعي فهاله ما رآه من انتشار اللصوصية في البلاد؛ ولذا جرد حملة للقضاء على هذه الظاهرة، ومن ثم إشاعة الأمن والطمأنينة في البلاد كما يظهر من قوله:

وَكَبَسَ اللَّصُوصَ وَالْأَكْرَادَ وَأَمَّنَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ
وَجَزَعَتْ مِنْ خَوْفِهِ الْفَرَاغَةَ فَأَصْبَحَتْ سَفْنُ التِّجَارِ أَمْنَةً⁽³³⁾

يصور ابن المعتز الفراعنة، رمز الطغيان والتمرد والشر، كما وصفهم النص القرآني، جزعين خائفين لأنهم وجدوا من يقف لهم بالمرصاد، ويضع حداً لجبروتهم، ويكفي بذلك عن قوة المعتضد وشجاعته في القضاء عليهم، وتأمين السفن بعد زوال خطرهم.

وفي إطار دفاع الشاعر عن حق العباسيين في الخلافة في صراعهم مع العلويين، رسم صورة مشرقة لجدهم (العباس) * فصوره واقفاً يدعو الله لينزل الغيث فقال:

ذَاكَ سَقَى اللَّهَ بِهِ عَلِيًّا وَغَمَرًا مِنَ السَّمَاءِ الرِّيًّا
وَنَصَبُوهُ قَائِمًا يَدْعُو لَهُمْ فَحَقَّقَ الرَّحْمَنُ فِيهِ سُؤْلَهُمْ⁽³⁴⁾

في النص السابق يوظف الشاعر حادثة تاريخية وقعت في عام الرمادة، زمن الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حين أجذب الناس، واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس قائلاً: "اللهم إن هؤلاء عبادك وبنو إمامك أتوك راغبين متوسلين إليك بعم نبيك، فاسقنا سقيا نافعة تعم البلاد وتحى العباد، اللهم إنا نستسقيك بعم نبيك ونستشفع إليك بشيبتة"، فسقوا⁽³⁵⁾. وقد عبر ابن المعتز عن سرعة استجابة الله لدعاء العباس بقوله: (فَحَقَّقَ الرَّحْمَنُ فِيهِ سُؤْلَهُمْ) مستمداً قوله هذا من قوله تعالى في قصة موسى-عليه السلام-: "قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى"⁽³⁶⁾، مستغلاً معنى الفاء الدالة على الترتيب مع التعقيب. ولما كانت الإغاثة بحاجة إلى رحمة الله -عز وجل- اختار الشاعر من أسمائه الحسنی الاسم المتناسب مع المضمون، فجاء الرحمن بدلالته على رحمته سبحانه التي وسعت كل شيء؛ وأنزلت لهم الغيث بعدما قنطوا.

2- قصة سليمان عليه السلام:

صور الشاعر إنجازاً آخر من إنجازات المعتضد التي تمثلت في النهضة العمرانية التي جسدها في بنائه للقصور الفخمة حين قال:

فَمَنْ رَأَى مِثْلَ الثَّرِيَّا قَصْرًا كَمْ حِكْمَةٍ فِيهِ تُخَالُ سِحْرًا⁽³⁷⁾
وَبِالرِّيَديَاتِ لَا تَنْسَاهَا قُرَّةُ عَيْنٍ كُلِّ مَنْ رَأَاهَا⁽³⁸⁾

وتذكرنا القصور في عهد المعتضد بالتماثيل والمحاريب التي بناها الجن لسليمان-عليه السلام- كما جاء في قوله تعالى: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلٍ"⁽³⁹⁾. ولم يكتف ابن المعتز بتشبيه النهضة العمرانية التي حدثت في عهد المعتضد بالنهضة العمرانية التي حدثت في عهد سليمان، فأبرز تفوق الأبنية في عهد الأول على ما بناه الجن في عهد النبي سليمان، وذلك حين قال:

وَمَذْكَرَاتٍ لِجَنَّاتِ الْخُلْدِ لِكُلِّ ذِي زُهْدٍ وَغَيْرِ زُهْدٍ⁽⁴⁰⁾

فالأبنية في عهد المعتضد لا مثيل لها، وهي تذكر بجنات الخلد على الرغم من أن بناتها من البشر، وليس الجن كما هو الشأن في عهد سليمان؛ ولذا وصفها قائلاً:

أَبْنِيَّةٌ فِيهَا جَنَّاتُ الْخُلْدِ تَفَقَّأَ أَحْدَاقَ مُلُوكِ الشَّرْكِ⁽⁴¹⁾

وفي قوله السابق كناية عن شدة جمال الأبنية التي تحل فيها جنان الخلد كما يفهم من استخدام الشاعر لحرف الجر (في) الذي يفيد استغراق الظرفية. وفي استخدامه الجملة الاسمية (أَبْنِيَّةٌ فِيهَا جِنَانُ الْخُلْدِ) تعبير عن استقرار الجمال، وثباته في تلك الأبنية التي توحى بشموخها وعظمتها، وقوة من أمر ببنائها واقتداره:

تُخْبِرُ عَنْ عِزٍّ وَعَنْ تَمَكِّينِ
وَحِكْمَةٍ مَقْرُونَةٍ بِالْدِّينِ⁽⁴²⁾

يستوحي ابن المعتز الصفات السابقة مما قصه علينا القرآن الكريم من صفات سليمان، ولم يستوحي الشاعر نصاً بعينه، وإنما كون تصوراً عاماً من خلال وصف القرآن الكريم لسليمان بالعلم والحكمة في قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً"⁽⁴³⁾، وقوله تعالى: "وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْماً"⁽⁴⁴⁾، ويوحى النص القرآني بقوة سليمان -عليه السلام- واقتداره، وهذا ما استحضره ابن المعتز حين مدح المعتضد، وصور إنجازاته العمرانية.

3- قصة نوح عليه السلام:

أطال الشاعر الوقوف عند حركات التمرد والفتن الكثيرة التي شهدتها الخلافة العباسية، ونجاح المعتضد في القضاء عليها الواحدة تلو الأخرى بعلو همته. وفي قول الشاعر عن قضاء المعتضد على تمرد محمد بن زيد صاحب طبرستان، وتمكنه من قتله عام 287هـ⁽⁴⁵⁾:

ثُمَّ ابْنُ زَيْدٍ بَعْدَ ذَاكَ قَدْ قُتِلَ
لَمْ يَنْجِهِ حِصْنٌ وَلَا رَأْسُ جَبَلٍ⁽⁴⁶⁾

استيحاء للحوار الذي دار بين نوح -عليه السلام- وابنه في قوله تعالى: "وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَاءَ لِي بَالِي أَنِ ارْكَبَ مَعَكَ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ" (47). وحافظ الشاعر في بيته السابق على مضمون النص القرآني وسياقه، فكلا النصين جاء في معرض الحديث عن الهلاك وعدم النجاة. واكتفى الشاعر بذكر مؤشر سريع دال على النص القرآني (لم ينجه رأس جبل) معتمداً على نكاه القارئ وثقافته ليدرك مراده في تشبيه حال ابن زيد بحال ابن نوح حين اعتقد كلاهما أن اللجوء إلى الجبل سيحميها من قدرهما. وكما استحق ابن نوح الفرق لكفره وتمرده على نصح والده، استحق ابن زيد؛ بتمرده على ولي أمر المسلمين وشقه عصا الطاعة، القتل.

وفي تصويره لسوء أوضاع مدينة الكوفة بسبب كثرة الثورات والفتن التي حلت بها، وظف الشاعرحادثة الطوفان في قصة نوح -عليه السلام- فقال:

وَعَشَّشَ السِّحْرُ بِهَا وَقَرَّخَا
ثُمَّ بَنَى بِأَرْضِهَا وَرَسَخَا⁽⁴⁸⁾

لقد كنى الشاعر بقوله (عشش السحر) عن سوء حال الكوفة، مشبها الأمر بالطائر الذي استطاب الإقامة في المكان، ففرخ فيه وأنجب فراخه تمهيداً للاستقرار والثبات، ثم زاد صورته إيضاحاً بتشبيهه الأمر الشديد بكائن حي يبني له مسكناً في ذلك المكان. وترك الشاعر للأفعال (عشش - بنى - رسخا) تصوير حال مدينة الكوفة خير تصوير؛ إذ توحى تلك الأفعال على التوالي بالخطر، وبالإقامة الدائمة، وبالثبات والتشبث في الإقامة. واستعان الشاعر بـ(ثم) للدلالة على طول الفترة الزمنية التي قضاه أهل الكوفة وهم يعانون من سوء أوضاعها. وبعد أن مهد لفكرته في بيته السابق، استوحى مضامين الآيات التالية: "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ"⁽⁴⁹⁾، "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"⁽⁵⁰⁾، "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ"⁽⁵¹⁾، ودمج بين ما ورد فيها في قوله:

وَعَرَقَ الْعَالَمَ مِنْ تَنُورِهَا جَزَاءَ شَرِّ كَانَ مِنْ شُرُورِهَا
وَهَرَبَتْ سَفِينَةُ الطُّوفَانِ مِنْهَا إِلَى الْجُودِيِّ وَالْأَرْكَانِ⁽⁵²⁾

ولولا معرفتنا السابقة بالنصوص القرآنية لما أحسنا أنه استمد قوله السابق منها، ونجح الشاعر فيما فعله لأنه استطاع إدخال ما استوحاه من النصوص القرآنية في نسيج نصه بحيث جعل الجزء المستعار جزءاً من لبنات نصه مندمجاً معه ورافداً له⁽⁵³⁾. وأباح الشاعر لنفسه تحوير ما استوحاه من النص القرآني، وتعديله بمقدار ما يخدم فكرته، فشبّه مدينة الكوفة بالتنور الذي كان فورانه علامة دالة على قرب بدء حدوث الفيضان، وتضمن تشبيهه السابق كناية عن تأصل الشر في مدينة الكوفة في ذلك الوقت، فقد صورها بالتنور الذي منه انطلقت شرارة الطوفان، ثم صور العالم يغرق بفعل شرورها وأذاها للدلالة على أنها أصبحت بؤرة للفساد، ولم يقتصر أذاها على نفسها بل شمل العالم كما قال، وفي هذا كناية عن سوء أوضاعها بدليل قوله (جزاء شر كان من شرورها)، ويمكننا ملاحظة إفراده لكلمة شر ثم جمعه لها فيما بعد، ليبين أن ما حدث كان جزاء بسيطاً على شر من شرورها، فكيف لو كان الجزاء على شرورها كلها، وترك الشاعر لخيال القارئ تصور ماهية ذلك الشر الذي كاد جزاؤه يغرق العالم كما وصف. وفي تصويره للسفينة تغادر الكوفة لتفر من شرورها تشبيه للمدينة بالطوفان الذي كاد يغرق السفينة، وصورها تستقر فوق الجودي كما وصف النص القرآني، ولئن حافظ الشاعر على مضمون النص القرآني إلا أنه خالفه عندما صور السفينة تهرب للنجاة بمن فيها، وكأنه أراد بيان أن الشر والأذى الذي عم الكوفة في ذلك الوقت، كان أخطر من الطوفان الذي حدث في عهد نوح -عليه السلام- بدليل تصويره للسفينة وسيلة النجاة من الطوفان تهرب من المدينة خشية الغرق. وعبر الشاعر شأنه

شأن النص القرآني بصورة تموج بالحركة الناتجة عن صورة السفينة والأمواج تتقاذفها يمينا ويسرة وهي تحاول التمسك للنجاة، ثم جاءت الصورة الحسية البصرية المقابلة لها تفيض بالهدوء والأمن باستقرار السفينة فوق الجودي كناية عن زوال الخطر.

وفي حديثه عن السبب الذي أدى إلى غرق الكوفة في الشرور والآثام قال الشاعر:
وَلَمْ يَزَلْ سُكَّانُهَا فُجَّارًا مُسْتَبْصِرًا فِي الشَّرِكِ أَوْ سَحَارَا⁽⁵⁴⁾

مستوحيا بذلك مضامين قوله تعالى: "وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فُجَّارًا كَفَّارًا"⁽⁵⁵⁾ وقوله سبحانه: "وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ"⁽⁵⁶⁾ وقوله تعالى: "وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ"⁽⁵⁷⁾ مكتفيا في هذا بذكر إشارات سريعة يتكئ عليها القارئ في فهم التناص، فهو ضمنا شبه سكان الكوفة الذين انتشر الفساد فيهم بقوم نوح-عليه السلام-بدليل وصفه لهم بالفجار، كما وصف نوح قومه. ثم شبههم بعاد وثمود الذين تمردوا وأفسدوا في الأرض متعمدين؛ فهم لم يكن ينقصهم العقل ولا الفهم كما وصفهم القرآن الكريم(مستبصرين)، ثم شبه الشاعر سكان الكوفة بقوم فرعون وملئه الذين بين لهم موسى-عليه السلام-أن السحرة لا يفلحون، وفي تشبيهه سكان الكوفة بقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وملئه والسحرة قبل إيمانهم، بيان إلى أن مدينة الكوفة استحققت ما حدث لها بما استحقه أهلها الذين وصفهم على التوالي بالفجار والمستبصرين في الشرك والسهار شأنهم شأن عاد وثمود، ولذلك جاءت صيغتا المبالغة(فجار وسحار)لتعبر عن شدة ما هم فيه من تيه وضلال بعدما وضح لهم الأمر واستبان، والمفارقة تتضح في إصرارهم على ضلالهم وفسادهم وتعمقهم فيه، لذا جاءت (في) بدلا لنتها على الظرفية لتفيد استغراقهم في الشرك، وهو ينكر عليهم فعلهم هذا لأنه جاء بعد وضوح الحق لهم. ويعرض بهم لأنه كان ينبغي عليهم بعد وضوح الحق التمسك به لا الانغماس في الضلال؛ لذا جاءت المفارقة في قوله السابق لتتتم جوانب الصورة السيئة التي رسمها لهم، وهي لا تقل سوءا عما فعله قوم نوح-عليه السلام-مما دفعه إلى الدعاء عليهم، ولا عما فعله ثمود وعاد.

واستحق سكان الكوفة بما فعلوا العقاب كما بين ابن المعتز في قوله:
فَفَرَّقُوا وَبَلَّلُوا بِلْبَالَا وَبَدَّلُوا مِنْ بَعْدِ حَالِ حَالَا⁽⁵⁸⁾

مستوحيا قوله تعالى: "وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ

سَمِعَ عَلِيمٌ كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ⁽⁵⁹⁾ ليحدثنا عن المصير السيئ الذي آل إليه حالهم، شأنهم شأن الذين كفروا وبخاصة آل فرعون كما وصف النص القرآني. ونعى الشاعر عليهم أنهم بدلوا ما كانوا فيه من خير ونعيم إلى عكسه؛ لذلك بنى الفعل إلى المجهول (بدلوا) لأن المهم هنا الحدث (التبديل) وليس عمن صدر. وجاء تصويره هذا ليعبر عن سوء فعلهم، وما كان أغناهم عن هذا التبديل الذي انعكست آثاره الوخيمة عليهم بدليل قوله (تفرقوا وبلبلوا بلبالا)، ومع أن كلمة تفرقوا توحى بالتشتت والتجزئة إلا أنه أثر إضافة وبلبلوا بلبالا ليزيد في تعميق المعنى، وفي تصوير سوء حالهم وشدة العذاب الذي حل بهم.

4- قصة عاد:

أكثر ابن المعتز في أرجوزته من الحديث عن حركات التمرد التي نجح المعتضد في القضاء عليها، مستوحياً في تصوير أوضاع المتمردين قصة عاد الذين طغوا وعصوا أمر ربهم، فقال: وشرعوا شرائع الفساد وأهلكوا قوم عاد⁽⁶⁰⁾

والشاعر في نصه السابق يوظف الآيات القرآنية التالية: "وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ"⁽⁶¹⁾، "وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ"⁽⁶²⁾، "وَأِنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى"⁽⁶³⁾ في تصويره لشدة العذاب والهلاك الذي حل بالصوص الذين انتشروا في عهد المعتضد، بحيث استأصلهم ولم يبق منهم أحد كما هو شأن الله مع عاد بدليل قول ابن المعتز (أهلكوا إهلاك). وعمد الشاعر بعد أن عمم العذاب في بيته السابق إلى تفصيله وبيانه في البيت التالي فقال:

فَأَوْدَعُوا السُّفْنَ مَكْتَفِينَ
مُغْلَغَلِينَ وَمُصَفِّدِينَ⁽⁶⁴⁾

وأظن أن هذا التفصيل أضعف من قوة الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية لإهلاك عاد، فالهلاك بدا عاماً وعظيماً كما صورته النص القرآني، وكما صورته الشاعر في بيته الأول، ولكن الشاعر مزقه في بيته الثاني حين قصره على أناس مكثفين ومصفيدين في السفن، ولو اكتفى بالبيت الأول لكان أفضل، إلا أن تصويره للصوص المصفيدين يعبر عن حالة النذل والهوان الذي علاهم بعد القضاء عليهم أكثر من تصويره شدة العذاب الذي حل بهم. وفصل النص القرآني في ماهية العذاب الذي حل بعاد؛ فهو تارة الريح العقيم، وتارة الريح الصرصر، وتارة غضب الله عليهم وطردهم من رحمته، وشتان بين صور العذاب الأنفة الذكر والتصفيد في السفن! ولئن لم يوفق الشاعر فيما مضى إلا أنه وفق في توظيف ما استوحاه من قصة عاد حين شبه فساد القرامطة واستحقاقهم العقاب، بفساد عاد واستحقاقهم العذاب.

وَأَهْلِكُوا إِيَّاهُ كَمَا قَوْمَ عَادٍ (65)

وَشَرَعُوا شَرَائِعَ الْفَسَادِ

مشيراً إلى قوله تعالى: "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ" (66). وإذا كان النص القرآني تحدث عن طغيان عاد وفسادهم، فإن الشاعر فعل الشيء نفسه، وفصل في الموبقات التي ارتكبتها القرامطة بعد أن ذكر المعنى مجملاً في قوله (وَشَرَعُوا شَرَائِعَ الْفَسَادِ)، مستعيناً بإيجاز القصر الذي يعرف بقدرته على التعبير عن المعنى الكثير والعميق باللفظ القليل الذي يغني عن ذكر كثير من التفاصيل التي يمكن للقارئ تقديمها وفهمها.

5- قصة إبراهيم عليه السلام:

استوحى ابن المعتز في وصفه مدينة الكوفة حين قال:

وَكُفِّرَ نَمْرُودٌ إِمَامَ الْكُفْرِ (67) مَصْنُوعَةٌ بِكُفْرِ بُخْتِ نَصْرٍ

قصة النمرود مع إبراهيم-عليه السلام-ليكني عن سوء أوضاعها، وانتشار الفساد فيها، فشبهها بمدينة مصنوعة من الكفر، مكرراً كلمة الكفر في بيته السابق ثلاث مرات ليوحى بشدة تمردوا وطغيانها، واستعان بإيجاز القصر في قوله (نمرود إمام الكفر) ليعبر عن شدة ضلالها وتيهها حيث صور إمام الكفر نمروداً يقودها. ولم يحدثنا الشاعر عن تفاصيل قصة النمرود مع إبراهيم -عليه السلام- مكتفياً بذكر إشارة عابرة إلى تلك القصة لكنها كافية للدلالة على مراده، مستمداً تصويره السابق من قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (68).

واستوحى الشاعر قصة إبراهيم ثانية حين قال:

وَهُمْ رَمَوْا فِي النَّارِ إِبْرَاهِيمَا لَمَّا رَأَوْا أَصْنَامَهُمْ رَمِيمَا (69)

يصور ابن المعتز سوء أفعال سكان مدينة الكوفة الذين انتقادوا لأنمة الكفر، مشبهاً إياهم بقوم إبراهيم الذين استشاطوا غضبا منه عندما رأوا أصنامهم مكسرة، واستمروا على ما هم فيه من ضلال وعناد، مستوحيا ما قصه القرآن الكريم في سورة الأنبياء (70)، وأطال النص القرآني في ذكر تفاصيل الحادثة، فسرر لنا الحوار الذي دار بين إبراهيم-عليه السلام- وقومه، وقرارهم إحراق إبراهيم لنصر آلهتهم، لكن الشاعر اكتفى بذكر مؤشر سريع دال على النص القرآني، وخالف النص القرآني بنسبته إلى قوم إبراهيم أفعالا لم يفعلوها، فهو صورهم كسروا دمي إبراهيم في البئر

انتقاماً لأصنامهم، مخالفاً بذلك ما صرح به النص القرآني من نيتهم حرق إبراهيم. كما أن الشاعر خالف النص القرآني ثانية بتصويره للأصنام باتت رميماً، وحقيقة الأمر أن إبراهيم اكتفى بتكسير الأصنام، ويمكن قبول تصوير الشاعر للأصنام بالرميم إذا كان يريد الإيحاء إلى أن الباطل لا محالة زائل، فتكسير إبراهيم للأصنام ممهد لزوالها وزوال عبادتها، فهي ستؤول فيما بعد إلى أن تكون رميماً.

6- قصة إرم ذات العماد:

لم يغفل الشاعر الحديث عن الإنجازات العسكرية الخارجية للمعتضد التي تمثلت في فتحه لمدينة آمد في عام 286هـ كما جاء في قوله:

وَأَعْظَمُ الْفَتْوحِ فَتْحُ أَمَدٍ مَعْقِلُ كُلِّ فَاجِرٍ مُعَانِدٍ
لَمْ تَرَ قَطُّ مِثْلَهَا مَدِينَهُ مَنِيعَةً بِسُورِهَا حَصِينَهُ⁽⁷¹⁾

مستوحياً قوله السابق من الآية الكريمة: "إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ"⁽⁷²⁾ مشبهاً مدينة آمد بأرم ذات الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد التي كما وصفها النص القرآني لم يخلق مثلها في البلاد، أما الشاعر فوصف آمد بـ (لم تر قط مثلها مدينة). والوصف القرآني أعمق من وصف الشاعر؛ لأن النص القرآني قال (لم يخلق)، والخلق يدل على الإبداع والإيجاد دون مثال سابق، أما الشاعر فاكتفى بقوله (لم تر مثلها)، وعدم الرؤية لا ينفي عدم وجود شبيه أو مثال لتلك المدينة، وكأنه أحس بهذا الأمر، ولذلك أضاف كلمة (قط) للإفادة من اختصاصها بالنفي ودلالاتها على استغراق الزمن الماضي، لكن يبقى التصوير القرآني أشمل وأعمق لأنه يوحي بالعظمة والعموم بدليل قوله (البلاد)، بينما يبدو تصوير الشاعر تصويراً جزئياً محدوداً بدليل قوله (مدينة). ويمكننا ملاحظة الفرق بين دلالة المدينة والبلاد من الأفراد والجمع والتكثير والتعريف. وحرص الشاعر على تصوير مناعة المدينة مستفيداً من إيحاءات ألفاظ (معقل، منيعة، حصينة) ليكني عن عظم الإنجاز الذي تحقق، ولو لم يكن الخليفة متميزاً بحسن تدبيره وتخطيطه وقوته لما استطاع فتح مثل تلك المدينة، وإعادتها إلى حظيرة الخلافة العباسية.

وختم الشاعر أرجوزته بالتأريخ لوفاة المعتضد فقال:

وَمَاتَ بَعْدَ مَا تَتَيْنِ قَدْ خَلَتْ فِي عَامِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ مَضَتْ
وَالْحَيَّ مُنْقَادُ إِلَى الْفَنَاءِ وَالرِّزْقُ لَا بَدْءَ إِلَى انْتِهَاءِ⁽⁷³⁾

مستوحياً مضمون عدد من الآيات القرآنية التي تبين حتمية الموت كقوله تعالى: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"⁽⁷⁴⁾، ليعزي نفسه، وليخفف من إحساسه بالألم لرحيل الخليفة الذي أعاد للخلافة هيبتها. وعبر النص القرآني والنص الشعري بالجملة الاسمية عن حتمية الموت تلك الحقيقة الثابتة

والمستقرة في الوجدان؛ فالحي منقاد للموت، خاضع له مستسلم، لا يستطيع النجاة أو الإفلات منه، مستوحياً في ذلك ضمناً قوله تعالى: "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ" (75) وربط الشاعر بين انتهاء الأجل، وحتمية الموت، وانتهاء الرزق في قوله (وَالرِّزْقُ لَا بُدَّ إِلَى إِنْتِهَاءٍ) مستخدماً الجملة الاسمية، لأنه يتحدث عن حقيقة ثابتة ومستقرة وهي انتهاء الرزق بانتهاء عمر صاحبه.

خاتمة:

عنية هذه الدراسة ببحث ظاهرة توظيف النص القرآني في أرجوزة ابن المعتز في مدح الخليفة العباسي عن طريق التناص. وتكشف هذه الظاهرة في الأرجوزة عن قدرة التراث على التواصل مع الحاضر. وبعد أن تتبعنا الدراسة المرجعيات النصية في الأرجوزة، توصلت إلى أن الشاعر كان واعياً لما اقتبس من النص القرآني، ونجح في إعادة صياغة ما استوحاه منه، وأدخله في نسيج نصه بحيث بدا وكأنه هو الذي يتحدث وليس النص القرآني، وهذا دليل على قدرة الشاعر على "إنتاج منظومة نصية مختلفة نوعياً عن مجرد إضافة وحدتين إحداهما إلى الأخرى" (76)، معتمداً في هذا المجال على ما تركه للقارئ من إشارات دالة على النصوص القرآنية.

The Quran Interextualite in Ibn Al-Mu'taz's Poetry (poems in the meter) for Al-Mu'tadh Caliph

Raeda Aku zhia, Department of Arabic Language and Literature, Hashemite University, Zarqa, Jordan.

Abstract

The study aims at showing the techniques of the Quran Interextualite which Ibn Al-Mu'taz made use of in his poems written in meter, these poems in which he wrote the history of Al-Mu'tadedh Caliph's achievements. It, first, attempts to identify the concept of "Interextualite" briefly. The study also gives a brief definition of "the poem in meter" as well as introduces the reason for writing it. In addition, the study traces the Interextualite and its indications in his "poem in meter". It is important to mention that there is a focus on the poet's use of the Quran text through tracing the verses and the stories of the Quran which the poet inspired from in his "poem in meter". Finally, the study concludes that Ibn Al-Mu'taz was able to paraphrase what he had inspired from the Quran and to merge it in the texture of his text so as it appears as if he actually speaks not the Quran text.

وقبل في 2009/9/3

قدم البحث للنشر في 2008/2/20

الهوامش:

- (1) الغدامي، عبدالله، ثقافة الأسئلة "مقالات في النقد والنظرية"، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ط2، 1992، ص119.
- (2) الغدامي، ثقافة الأسئلة، ص 111.
- (3) الغدامي، انظر فصل (تداخل النصوص: النص ابن النص).
- (4) مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992، ص 123.
- (5) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ج1، بيروت، دار الكتاب العربي، ط. 5، 1969، ص25.
- (6) مروة، محمد رضا، عبد الله ابن المعتز خليفة يوم وليلة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990، ص75. وخفاجي، محمد عبد المنعم، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، بيروت، دار الجيل، 1991، ص394.
- (7) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي، ومحمد العثماني، بيروت، دار الأرقم، 2002، ص 152-154.
- (8) خفاجي، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص172-173.
- (9) عطوان، حسين، الدعوة العباسية، مبادئ وأساليب، بيروت، دار الجيل، 1984، ص127.
- (10) ابن الطقطقي، أبو جعفر محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق عبد القادر مايو، حلب، دار القلم العربي، 1997، ص123.
- (11) شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق يونس السامرائي، القسم الأول، الديوان، صنعة أبي بكر الصولي، ج1، الجمهورية العراقية، 1977، ص519.
- (12) الفاتحة:1.
- (13) القصص:70.
- (14). الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر، 1995، ص 403.
- (15) شعرا ابن المعتز، ص520.
- (16) آل عمران:47.

(17) مريم: 67.

(18) البقرة: 117.

(19) شعراين المعتز، ص 536.

(20) آل عمران: 126.

(21) الروم: 4-5.

(22) شعراين المعتز، ص 520.

(23) الأحزاب: 40.

(24) الأحزاب: 56.

(25) شعراين المعتز، ص 523.

(26) خفاجي، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص 397.

(27) طه: 24.

* صاحب الزنج، هو علي بن محمد، كان يدعي أنه علوي النسب، أخذ يدعو الناس إلى الالتفات حوله، بدعوى العلوية، ثم أغوى الزنج في البصرة، واستطاع بهم أن يكتسح الأمصار والبلاد فيقتل ويحرق ويسبي، ولما استفحل أمره ندم المعتمد أخاه لقتله، وتمكن من ذلك بعد حروب طاحنة دامت أربعة عشر عاماً. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، راجعه محمد يوسف الدقاق، م 6، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط 2، 1995، ص 206-212.

(28) شعراين المعتز، ص 529.

(29) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة، 1972 (شاخ).

* غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، قوي الأرجل، عظيم الحوافر، المعجم الوسيط، (برذ).

(30) شعراين المعتز، ص 586.

(31) المعجم الوسيط، (صرح).

(32). غافر: 36-37.

(33) شعراين المعتز، ص546. كبس: هجم عليهم.

* لما أصاب الناس القحط والجذب في عام الرمادة، ألح عمر بن الخطاب بالدعاء، وأخذ بيد العباس يستسقي بها الله -عز وجل- فاستجاب الله، وأنزل عليهم الغيث، ورفع عنهم المحل. ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج3، بيروت، لبنان، 1990، ص 244.

(34) شعراين المعتز، ص556. عمراً: التنوين في البيت ضرورة شعرية.

(35) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج4، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت- لبنان، دار الفكر، 1996، ص14.

(36). طه:36.

(37) شعراين المعتز، ص560.

(38) شعراين المعتز، ص562.

(39) سبأ:13.

(40) شعراين المعتز، ص563.

(41) شعراين المعتز، ص563.

(42) شعراين المعتز، ص563.

(43) النمل:15.

(44) الأنبياء:79.

(45) خفاجي، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص412.

(46) شعراين المعتز، ص575.

(47) هود:42-43.

(48) شعراين المعتز، ص585.

(49) هود:40.

(50) هود:44.

(51) القمر:11-12.

- (52) شعراين المعتز، ص585-586.
- (53) ربابعة، موسى، التناص في نماذج من الشعر الحديث، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، ط1، 2000، ص 86.
- (54) شعراين المعتز، ص586.
- (55) نوح:27.
- (56) العنكبوت:38.
- (57) يونس:77.
- (58) شعراين المعتز، ص586. بلبلوا: تفرقوا.
- (59) الأنفال:50-54.
- (60) شعراين المعتز، ص580.
- (61) الذاريات:41-42.
- (62) الحاقة:6.
- (63) النجم:50.
- (64) شعراين المعتز، ص547.
- (65) شعراين المعتز، ص580.
- (66) هود:59-60.
- (67) شعراين المعتز، ص585.
- (68) البقرة:258.
- (69) شعراين المعتز، ص587.
- (70) الأنبياء:57-70.
- (71) شعراين المعتز، ص565.
- (72) الفجر:7-8.
- (73) شعراين المعتز، ص591.

(74) الرحمن:26.

(75) النساء:78.

(76) جهاد، كاظم، أدونيس منتحلاً (دراسة في الاستحواذ الأدبي، وارتجالية الترجمة) يسبقها: ما هو التناص؟ مكتبة مدبولي، 1993.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن. (1995). الكامل في التاريخ، راجعه محمد يوسف الدقاق، م6، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط2.

ابن الطقطقي، أبو جعفر محمد بن علي. (1997). الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق عبد القادر مايو، حلب، دار القلم العربي.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد. (1990). الطبقات الكبرى، ج3، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، لبنان.

أمين، أحمد. (1969). ظهر الإسلام، ج1، بيروت، دار الكتاب العربي، ط5.

أنيس، إبراهيم وآخرون. (د.ت). المعجم الوسيط، القاهرة،

البلاذري، أحمد بن يحيى. (1996). أنساب الأشراف، ج4، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت-لبنان، دار الفكر.

جهاد، كاظم. (1993). أدونيس منتحلاً (دراسة في الاستحواذ الأدبي، وارتجالية الترجمة) يسبقها: ما هو التناص؟ مكتبة مدبولي.

خفاجي، محمد عبد المنعم. (1991). ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، بيروت، دار الجيل.

الرازي، فخر الدين. (1995). مفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر.

ربابعة، موسى. (2000). التناص في نماذج من الشعر الحديث، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، ط1.

- السيوطي. (2002). تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي، ومحمد العثماني، بيروت، دار الأرقم.
- شعر ابن المعتز. (1977). دراسة وتحقيق يونس السامرائي، القسم الأول، الديوان، صنعة أبي بكر الصولي، ج1، الجمهورية العراقية.
- عطوان، حسين. (1984). الدعوة العباسية، مبادئ وأساليب، بيروت، دار الجيل.
- الغدامي، عبدالله. (1992). ثقافة الأسئلة "مقالات في النقد والنظرية"، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ط2،
- مروة، محمد رضا. (1972). عبد الله ابن المعتز خليفة يوم وليلة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990.
- مفتاح، محمد. (1992). تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3.